

الفصل الثالث

الطفل المصري

قبل أن نخوض في وصف الطفل المصري وقبل أن نفصل نتيجة
دراساتنا ومشاهدتنا يجب أن نوضح نقطة هامة في الموضوع وهي عنوان
هذا الفصل أو الطفل المصري

لا نقصد منها أولا الصبي الذي ينتهي الى مدرسة ابتدائية أميرية
أو أهلية ، فهذا النوع من الاطفال اقلية ضئيلة جدا لا يعتمد بها ولا يحسب
اما حساب بجانب الألوف ومئات الألوف الذين يسكنون شوارع المدن
الكبيرة ، واطفال المدارس من هذا الصنف طبقة مخطوطة على العموم ،
لا كل وتشرب ما يكاد يكفيها وينفذها ، ونذهب الى المدارس حيث نتعلم ما
نحتاجه ، وان كانت لا نتعلم شيئا ذا قيمة ولكنها على أي حال تجدد الحماية
الكافية من الاسرار ومن التسكع في الشوارع والطرقات ، ولذلك فقد
الحققتنا هذه الطبقة من حسابنا في هذا الفصل وعندما نذكر الطفل المصري
أو الصبي المصري أو أي اصطلاح يؤدي الى هذا المعنى لا نقصد طلبته
المدارس الابتدائية أو الثانوية الأميركية أو الأهلية على الاطلاق .

ثم نحن لا نقصد بالطفل المصري ابناء الفلاحين المقيمين في القرى وذلك
بسبب بسيط وسبب وهو ان هذه دراسة عملت بين ظهرائنا اطفال الشعب في
القاهرة دون سواها في هذا الفصل بالذات لا نقصد اطفال القرى .

نعم سوف نعمم هذا الاصطلاح ، وسوف نجعله يشمل اطفال المصريين
جميعا وسوف يكون هذا في بعض الفصول التالية ، اما في هذا الفصل
فسيكون كلامنا قاصرا على اطفال الشعب الذين يسكنون شوارع القاهرة
وطرقاتها دون غيرهم هؤلاء الاطفال الذين يطلق عليهم بعض الناس لفظ

(المتشردين) أو (الاحداث) أو (المجرمين) أو (اطفال الشوارع) الى آخر هذه التسميات .

بعد هذا الايضاح الضروري نفود الى أبناء الشعب والى ما وجدنا فيهم من خصائص بدنية او نفسية او اخلاقية .

واول ما يشاهد في أبناء الشعب الامراض الظاهرة الواضحة التي تكاد تكون مكتوبة على الجبين والتي لا يحتاج الانسان معها الى أن يكون طبيباً حتى يفهمها أو يدل عليها لانها واضحة لكل ذي عينين ، فالامراض الجلدية والقراع وامراض العيون واصفرار الوجه ونعافة البدن كل هذه اشياء يكاد يلمسها كل فرد دون حاجة الى استشارة طبيب أو الى الكشف الطبي .

والقدارة هي الطابع الخاص لهذه الطبقة قذارة الملابس والايذان وبخاصة قذارة الوجه والعينين حتى يكاد يمس الانسان انها مقصودة لذاتها مرغوب فيها عندهم كآتهم يتعمدون بها ويتجشمون الصهاب للظهور بها ، وقد يكون السبب في القذارة الفقر أو الجهل أو الاثنين جميعاً أو قد يكون سبباً آخر لا ندره ، وعلى كل حال فان قذارة هؤلاء الصبيان تقزز النفس ويقشع لها البدن ، فلم نكن نخشى منهم شيئاً قدر ما نخشاها ونخاف منها وبخاصة في مواسم الأمراض ، وقد بذلنا جهداً كبيراً في كبت هذا الشعور الذي كان يملك نفوسنا ويهمل دائماً وبشدة على قطع صلاتنا بهم ومباعدة ما بيننا وبينهم ، ومن شدة ارهاف الحس عندنا كان الكاتب يهرش جسمه باستمرار لشعوره المستديم بحركات تشبه حركات الحشرات كالقمل والبراغيث والبق وما اليها ، وفي أغلب الاحيان لم يكن هناك شيء من هذا وانما الاستعداد النفسي والعلم اليقين بموافر هذه الحشرات في البيئة كافاً السبب المباشر في هذا الشعور بالحاجة الى هرش البدن .

لا نعلم على التحقيق سواء أكان فقر هذه الطبقات علة أم نتيجة سبباً أم مسبباً فبعض الناس يزعم أن العلة والفقر هي الجهل والمرض والعجز عن

العمل النافع المنتج . وبعضهم يظن أن الفقر هو الأصل وهذه الرزايا هي النتيجة المباشرة له ، وقد يكون الشيء الواحد سببا ونتيجة في نفس الوقت ، فالفقر يتيح المرض وهذا بدوره يشيع الفقر بين الناس ، وهكذا تدور الحلقة من شر الى شر لا نهاية له .

ومما ليس فيه شك على ما نظن أن الفقر هو داء يلزم طبقات اطفال الشعب ملازمة الطفل بحيث يكاد يكون مرسوما على جباههم تراه في لباسهم وفي مأكلهم وفي تصرفاتهم ونحسسه في خواج نفوسهم ، وتستبينه في دوافعهم للعمل والسكون ، فحاجاتهم الشديدة لبعض النقود يتصرفونها استحياء كغير فيما يأتون من اعمال وما يقتربون من أوزار ، وتدفقهم في بعض الاحيان الى المخاطرة بالشيء الكثير للحصول على مبالغ قليلة .

وعلى كل حال لم تكن الجماعة في حاجة الى تفكير طويل وتقدير محكم واقامة حفلات العدى وغير العدى والقاء الخطب والتنظيم الدقيق لاشئونها وتحضير ابواب الدراسة لتخرج من هذا كله بأن اطفال الشعب مرضي وقذرون وفقراء ، فمعرفة هذه الحقائق لا تتطلب كل هذه الجهود اذ هي اشياء ظاهرة واضحة لكل عابر سبيل دون دراسة أو ما يشبه الدراسة .

وما ارادت الجماعة دراسته في الواقع هو نفسية اطفال الشعب ، اخلاقهم وميولهم وتفكيرهم والدوافع النفسية لتصرفاتهم . كيف يتصرفون في الحالات المختلفة وماذا يتصرفون هكذا وعلى هذا الوضع دون سواه ، وهل هم الذين التصرفات مما يؤدي بهم الى تكوين أمة عندما يصبحون رجالا متماسكة قوية تعرف ما تريد وتستطيع أن تصل الى ما تريد ، هل يمكن أن يجتمعوا رأيهم في المستقبل على أمر ويتعاونوا على بلوغ الغاية التي يبتشدونها ، وهل يتوافر عند افراد أمة الغد الاستعداد للقيام بما يجب على كل منهم ، وهل سيصبح الذكرى الأمة والجماعة معنى عند هؤلاء الافراد ، هل يحسمون لهذا وجودا ويعملون على رضاها ويخدمونها بكل ما يملكون من قوة ونشاط .

ربما نعرف حالة بلادنا الرهينة ، ربما نخمسل اليها أننا نعرف تقائض الجيل السابق ومن آياته ، فما يصلح له هذا الجيل من المصيرين ، وما لا يصلح لنا يستلزم أن يفهم ، وما يعجز عن عمله ، ربما نظن أننا نعرف هذا ولكننا على المستقيمين الجاهل نفسية الجيل القادم ونجهل من آياه وعيوبه الى حد كبير ولا نستطيع أن نتكهن بحالة الأمة النفسية والاجتماعية بعد انقضاء هذا الجيل وبعد أن يستقل أطفال اليوم مقاليد الأمور في البلد يصرفونها طبقاً لمواهم وتديرونها كما يريدون ، نستقرئ من حياتهم الراسخ الدلائل والآثار التي على حياتهم العقلية وهي سيكرنون جماعة لها خطتها وقدرتها ، لم يهجز من دون هذا المرض فتعم القرصنة وينتشر الفساد وتنتكس الروابط الاجتماعية وتزاح أقدام البلاد شيئاً فشيئاً وتتدهور الى الخطيئض .

والادب المصري ظهر من هذه الدراسة فلا يوجد على ما نظن القصص التي تتناول حياة أطفالنا سواء أكانوا من أبناء الشعب ، أو كل ما هنالك على ما نظن إنما هو الأيام لطفه حسنين وهذا ترجمة حياة طفل بذاته قد يشبه الأطفال وقد لا يشبههم ، وأما القصص التي تعالج أطفال الشعب عامة والتي تفتح أمامها المجال لمعرفةهم ومعروف حياتهم من يوم الى يوم وتكشف امامنا مصيراتهم والدوافع لهذه التصرفات فقير موجودة على ما نظن ، كنا نحب أن نقرأ أمثال (دافيد كبر فيلده) (وسوريل وولده) (ورب المنزل) وأمثال هذه كثير مما يفتح أذهان الناس لمشاكل الأطفال ويفتح المسالك أمام المصلحين حتى يصابوا بالحالات القائمة مما لا يستقيم للحياة الاجتماعية . ويذكر كاتب هذه السطور أنه حاول أن يفرض بعض كتاب القصص عندنا بهذا الموضوع ففشل فشلاً ذريعاً أما لعجزه عن الإغراء أو لأن الموضوع لا يلقي هوي في نفوس القاصصين النابهين ، فعسى أن يكون في هذا الكتاب مسادة تصلح أساساً لقصص يخدم هذه الطائفة التي يتوقف عليها مستقبل الأمة

درسنا نفسية أبناء الشعب على قدر ما تسمح به ثقافتنا المحدودة وبقدر ما تسمح به معارفنا من قواعد تعلم النفس والتربية وقواعد الاجتماع ، ونخيل اليها أننا خرجنا ببعض المعلومات والحقائق لنترجم عنها فصل الخطاب في الموضوع وإنما نظن أنها قد تلتقي ضوءاً عليه ينير الطريق ويهين من هم أقدر منا في هذا الباب على أن يوجد والكشف عن حقائق الأمور .

وقبل أن تفصل نفسية الطفل المصري وندين بعض نواحيها التي تكشفت لنا نرجع أن نلاحظ القارئ أن الاتجاهات والميول والعناصر النفسية والاجتماعية المختلفة متداخلة في بعضها . يؤثر بعضها في البعض الآخر بحيث لا يمكن فصلها كل الفصل وحصرها في حدودها ككل الحصر وبعد فالتنس الانسانية وحيدة تؤثر فيها كل العوامل مجتمعة ومنفصلة والعوامل التي تؤثر في بعضها في نفس الوقت حتى يصبح من التمسك أن يطالب انسان بالترام الظاهرة الواحدة والتحدث فيها وحدها دون المساس بالظواهر الأخرى .

والحياة الاجتماعية إنما هي حياة مشتركة يساهم فيها أفراد مختلفون ثنائين مذاقهم واهمجتهم وكنمااتهم غاية ظاهرة نفسية في الفرد لا بدوان يكون لها رد فعل في الحياة الاجتماعية يختلف شدة وضعفاً تبعاً لمكانة الفرد في الجماعة أو تبعاً لشبوع هذه الظاهرة فيها ، فحب الذات في الافراد مثلاً من العوامل التي تضعف الروابط الاجتماعية وتذو عقد الأمة أو الجماعة معها كانت طالة الأفران فيها من القوة ومضاء العزيمة : من شأن حب الذات الاضافة الى بعض العوامل الأخرى أن يجعل الجماعة أو الأمة مفككة ضعيفة لا حول لها ولا طول كجماعة .

فندما نتحدث عن عناصر الشخصية في الافراد لا بد وأن يجر الحديث سواء اردنا أم لم نرد إلى نوع الحياة الاجتماعية بينهم وإلى نوع الامسة التي تتكون منهم ، وعلى هذا نخيل اليها أننا سنعجز إذا اردنا أن نصف نفسيات

اطفال الشعب دون أن ننس الحياة الاجتماعية عنددهم الآن وفي المستقبل .
وبعبارة أخرى نظن أننا سنضطر أن ننظر إلى هؤلاء الاطفال كطائفة أو
كجماعة لها خصائصها ومميزات الآن وأنه قد يستدل من الخصائص والسمات
الحالية على شكل الجماعة التي سينتظمون فيها بعد عشرين سنة مثلاً ، ونظن
أنه لا بأس علينا من هذا لأننا مهنيون بالاصلاح ، والاصلاح لا يمكن إلا أن
يلتقي إلى تغيير وضع الحياة الاجتماعية بحيث تصبح ملائمة لتفسيحة افراد
من نوع افضل واكثاء من افراد الجيل الحالي .

وأول شيء لا حظته الجماعة على الطفل المصري أنه لا يستطيع أن يشار
على عمل أو نشاط لا تكون له فوائد المعجزة ، فعندما نقترح على جماعة منهم
عملاً أو مشروعاً نجد الاقبال عليه شديداً والحماس له ظاهراً بحيث يحيل
اليك أن هذا المشروع لاقى هوى دفيناً في نفوس الافراد كلهم . واغلب
الظن أنه قد لاقى هذا الهوى وهذه الرغبة الملحة التي تدفع الناس إلى النشاط
بما يجعله يستمر إلى أن تؤتى ثمراته ، ويقبل الصبيان بحماس اذن ويبدأون
في عملهم ثم تتلاشى فيهم الرغبة بمثل الممرعة التي تبت بها وينصرفون واحداً
واحداً عن هذا النشاط إلى شيء غيره ، وهكذا من شيء إلى شيء ومن نشاط
إلى نشاط حتى لا يكادوا يحسنون شيئاً من الأشياء .

ولا نقول أن عدم المثابرة ناتج من انعدام الرغبة أو ذبولها شيئاً فشيئاً
إلى أن تصبح غير كافية لدفع النشاط ، فالرغبة ثارت أولاً للغاية من النشاط
وليس للنشاط ذاته ، والغاية موجودة ولا تزال مغرية محببة إلى النفس ،
والرغبة فيها موجودة لم يعتورها وهن أو ضعف ، وإنما ما نقص واعتوره
الضعف والوهن الاستعداد لحمل النفس على عمل ما لا تريد في سبيل غاية
بعيدة تريدها هو هذا العزم الذي يحمل الفرد على اغتال الامر الواقع في
سبيل الثمرة البعيدة ، هو تضحية الحاضر للمستقبل لا عن تفكير سابق وتدابير
مقصود وإنما عن كراهة للرجوع عن نية اتواها الفرد دون سبب ظاهراً

لا تبرمه بالنشاط الراهن ودون أن تستجد عوامل لم يعمل حسابها من شأنها أن تجعل الفرد ينصرف عن الغاية التي يسعى إليها .

يريد الطفل أن يتعلم الموسيقى ولعبة الشطرنج والقراءة والكتابة واللغة الأجنبية وجميع الصور وتوفر النقود كل هذه أغراض محببة بهواها الطفل ومحبتها ويرغب في العمل للوصول إليها ويقبل على النشاط الذي يؤدي إليها . ثم يشرع في عملها ويسير فيه وإذا بدت تفتقر فيه العزيمة وتضعف ، ويصبح النشاط متعبا ثقيلًا فبعضها بحيث يقضى التبرم به إلى الأغضاء عن الغاية أو التنازلي عنها ، لا ننكر أن من طبيعة الحياة في هذه السن العجلة والتقلب . ومن طبيعة رغبات الأطفال انها وقتية ولكننا نشعر أن حياة الكبار عندما وفي جيلنا الحاضر تشبه في هذا حياة هؤلاء الأطفال ، وقد لا نكون مخطئين كثيرا عندما نرغم أن سن هؤلاء الأطفال لا تبرز هذا النقص في المثابرة . وبعد فالصبي في سن الخامسة عشرة مثلا لا يكون بهذا الوضع من الاستعداد لترك غايته واغراضه بهذه السهولة وهذا اليسر . نعلم انه في هذه السن يستطيع أن يتوجه إلى غاية قد تكون بعيدة نوعا ما ثم يثابر على النشاط إلى أن يصل إلى الغاية .

وقد يكون تأخر الصناعات في بلادنا مرجعه إلى نقص في هذه الخاصية النفسية أي إلى عدم المثابرة ، فالتقان الضروري للصناعة والذي لا تقوم صناعة من دونه مرجعه إلى المثابرة وإلى مقدرة الفرد على توجيه نفسه إلى الغاية ، دون نظر إلى الطريق الذي يجب أن يسلكها لهذه الغاية ، وقد يكون النشاط الذي يؤدي إليها ثقيلًا بغيضا لا يحب الإنسان أن يمارسه إذا ما ترك لنفسه ، ولكنه لا يترك نفسه لنفسه وإنما يجعل الغرض النهائي الحكم الفصل في ميوله ورغباته الوقتية ويضحي بهذه جميعها في سبيل تلك ثم يكب على العمل ويلزمه ويلزمه يوما قيوما وشهرا فشهرًا ولا يكف عنه بحال قبل أن يصل إلى غرضه بتمامه .

وعلى كل حال وجدنا أن الأطفال عندما لا يشابرون ، وفي رأينا أن
 يمكن تخطين أن يرجع هذا النقص إلى اخلاقهم وإلى تربيتهم وليس لسنهم
 أو لنقص عقلي أو بدني فيهم. وأن هذا النقص من شأنه أن ينمى لنا جيلا
 أقل ما يقال فيه أنه قد يعجز عن اتقان شيء من الأشياء وسوف يكتفى من
 الأمور بأن يفهم فيها سطوحيا ، وسوف تموزه الدقة والاتقان في أعماله .

ونظن أن هذه الظاهرة الاخلاقية الرديئة طارئة على الحياة المصرية إذ
 ليس من شك في أن حدودنا المصريين الاقدمين لم تكن تهوّنهم المثابرة والتزام ،
 ما كانوا يهتمون إلى أن يصلوا إلى الغاية المنشودة ، فأكثروا من عمل فيما تدل عليه
 بخلاف الثقافة والمدنية والفن انهم كانوا قوما لا يفكرون عن عمل اضطلعوا
 به حتى يتسروا ، فكانوا يضطرون للخطط لأقامة بناء مثلا يستغرق عشرات
 السنين ، وقد يموتون قبل تمامه في كثير من الاحيان ، ومع ذلك يأتي من
 بعدهم ويستأنفون العمل حيث تركه الجيل السابق ، ويرواونه ويلتزمون
 النشاط فيه إلى أن يملأوا الغاية .

فهي وكيف قلنا هذه الخاصية ياترى أو كيف ومتى ضعفت فينا على
 الأقل . ما هي العوامل التي من شأنها أن تضعف الخلق من هذه الناحية
 وهل هذه العوامل اجتماعية ، وهل هي مما يمكن التغلب عليها حتى نسترد
 ما نظن أننا كنا نملكه في هذا الباب .

بالطبع لا يفهم المصري قيمة الوقت ، ولما كنا نطلبه إن تطلبنا منه
 أن يفهم هذا في حالته الراهنة وفي الحيوان الذي يعيش فيه ففهم قيمة الوقت
 يتطلب في الفرد معرفة واسعة بالحياة وثقافة اقتصادية خاصة ،
 واغراضا معينة للحياة والعيش يسعى إليها الفرد ويعمل ويشغل بسرعة
 وفي حرص شديد على الوقت حتى يصل إلى ما يريد .

وتقدير قيمة الوقت هو في الواقع نتيجة لفهم معنى الواجب فيها عميقا
 وفي حرص شديد على تأدية هذا الواجب والعجلة في تأديته حتى لا يضيع

الوقت فيصبح من المنعذر عليه آداؤه ، فتأجيل العمل من ساعة الى أخرى ومن يوم الى آخر دليل على عدم تقدير الفرد لقيمة الوقت التقدير الصحيح وبخاصة متى كان التأجيل ناشئاً عن ميل للتردد في البدء فيه أو عن زحزحته الى وقت مستقبل بمجرد الشعور بعدم الميل للعمل أو بمجرد الكسل والركون الى الراحة أو الى تسليته يؤثرها الفرد على العمل والواجب ، كل هذه واشباهها دليل على أن الفرد لا يفهم قيمة الوقت وقيمة الحياة واستغلالها فيما يعود عليه وعلى من ينتمون اليه بخير النتائج .

والوقت عند الصبي المصري شيء لا قيمة له ، فهو اذا ترك لنفسه ولما يهوى مضى الوقت أو ضيعه والسلام ان لم يكن في التسكع في الشوارع ففي مما كسبه الناس والبحث عن المثيرات بأي شكل ، والوقت الذي يضيع على هذا الوضع يفسد الحياة من اولها الى آخرها وينتج اثاره السيئة في حياتهم كإفرااد وفي حياة الجماعة .

والعمل شيء بغض عند هؤلاء الصبيان فليس له عندهم معنى الا انه خلق لتنفيذ حياتهم وزيادة مشاكلها واعبائها ، وعلى هذا فهم يكرهونه وينفرون منه ويردون لو تيسر لهم العيش من دونه فيهربون منه ولا يقبلون عليه الا خوفاً من عقوبة تنزل بهم وخوفاً من اهليهم ورؤسائهم ومن يعمل باستمرار منهم لا يعمل برغبة عنده أو لذة يستخلصها من العمل أو لانه يسر اذا يرى افتاحه ونتيجة عمله من الدقة والكمال ، أو لان عنده ملكة الخلق والابداع ويريد ان يشبع هذه النوازع في نفسه .

والسنا في حاجة إلى الزعم بأن العمل والانتاج هما أساس الحياة الاقتصادية لأية جماعة أو أمة لا بل هما أساس الحياة من أولها إلى آخرها اذا أخذنا برأي دعاة التفسير الاقتصادي للتاريخ أما إذا كنا من الذين يعتقدون بوحدة الحياة وأن العامل النفساني والعامل الاقتصادي هما جميعاً عنصراً في الحياة يرتبط أحدهما بالآخر ويؤثر أحدهما في الآخر كل التأثير فنحن أيضاً

نعرف قدر العمل في الحياة في مجموعها ، وأية أمة يهرب أفرادها من العمل وينظرون إليه على أنه شر لا بد منه ويحاولون التخلص منه بجميع الوسائل لا يمكن أن تكون حياة ير كمن إليها ولا يمكن المنكرين أن يتركوها لأنها تسير كيفما اتفق لها أن تسير ، لا بل نظن أنه يجب على علماء النفس والمربين أن يعالجوا هذه الظاهرة في صبيان الامة ، ويوالوا علاجها إلى أن تصبح هذه الظاهرة وتمكون عند الصبيان ثقافة جديدة تضع العمل وما يتعلق بالعمل في الموضوع اللائق به ، يجب أن ينتهي بصبياننا المطاف حتى يصبحوا ممن يقدسون العمل ويرون ضرورته أولا واللذة التي تصحبه ثانياً وحتى يصبحوا ذويين على العمل مغرمين به مولعين به هذا الضرب من النشاط .

لا ننكر أنه قد يكون منشأ هذه العلة حياة الطفل في عائلته أو حياته في البيئة وبعبارة أخرى حالته النفسية ، أو قد تكون العلة في هذا حاجته إلى الغذاء وعجزه الجسماني أو ضعفه العام وقد تكون ناشئة من الأعراض المتنوعة التي تعمل عملها في بدنه وتقضي على كفايته للعمل ، قد تكون إحدى هذه العلة السبب فيما نرى كراهية الصبيان للعمل وقد تكون هذه العلة مجتمعة هي السبب المباشر ، كل يعمل من ناحية حتى أصبح الصبي في هذه الحياة من النفور من العمل ، وعلى كل حال نظن أنه من واجبنا أن نعالج هذه الحالة بجهودنا حتى نقضي عليها أو نخفف وقعها على أقل تقدير ، وبغير هذا نظن أنه ليس في وسعنا أن نطمئن لمستقبل أمتنا .

وهناك ظاهرة أخرى في حياة الصبي المصري وهي انطوائه على نفسه وشعوره بهذه النفس دون سواها والعمل على إرضائها ولو كان في هذا ضرر شديد يحيق بغيره حتى وإن لم تكن العادة التي تعود عليه شذوذا كبيرا أو ذات أثر مستديم في حياته ، فهو مستعد أن يضحى بالعدد الكبير من الصبيان الآخرين ، يضحى براحتهم ولذتهم لا بل يهرضهم للسخط والعقوبة وضرب الصالح إذا ظن أو خيل إليه أن هذا قد يعود عليه ببعض الفوائد

القليلة أو الكثيرة، وبعبارة أخرى أن الصبي المصري معنى بنفسه يحب نفسه وليس له هم في الحياة كلها ألا أن يدفع عنها الضرر ويحلب لها الخير بكل الطريق الممكنة. بغض النظر عما يحقق غيره، فقد يسرق الصبي كرة تذهب بها الجماعة، ويلعب هو معهم فتسليمهم وتسليمه ويستخلصون منها اللذة والمرح وهو بالطبع يشار إليهم لذتهم وسرحتهم، ومع ذلك يسرقها ويحتجزها في بيته ويحرم نفسه وإخوانه هذه اللذة، بمجرد رغبته في أن تكون الكرة ملكاً له وحده دون غيره، وقد يكون أنه سرقها لأنه يريد أن يبيعها لأنه في حاجة إلى ثمنها، ولكن هذه الحاجة في نهاية الأمر لا تبرر له أن يحرم إخوانه من لذتهم إلا إذا أضعف إلى شعوره بالحاجة شعور آخر وهو تفضيل نفسه وإيثارها على من عداها بشكل يضر بالجماعة.

وإيثار النفس أمر مشروع في عرفنا فلا نظن أن مغالاة الأخلاقيين في تقييد هذه الغريزة معقولة إلى حد كبير لابل نظن أن من المقول أنه يؤثر الإنسان نفسه ويعمل بكل ما أوتي من قوة على رضاها وإسعادها، وإن هذا اتجاه طبيعي للحياة لا غبار عليه وإنما ما نأخذ عليه صبينا وما يجب أن يؤخذ على الأفراد جميعاً هو المغالاة في هذا الإيثار وانغفال الجماعة التي ينتمي إليها الفرد كل الانغفال، وإرضاء شهوات النفس على حساب الفسير هذا النوع من الإيثار القبيح الذي يعمل على هدم حياة الجماعة وبالتالي يضر بحياة الأفراد فيها.

لا ننكر أن إيثار الجماعة والأفراد الآخرين فيها شيء أعلى مرتبة من هذا الذي ندعو إليه، وأن التضحية بالنفس وبما يعود على النفس في سبيل الغير تعلق في باب الفضائل على العمل لمجرد خدمة النفس، ولكن هذه خلة الأبطال وعظاء الرجال والأنبياء وليست خلة الأفراد العاديين الذين ندعو إلى تحسين معاشهم وحياتهم العسادية من يوم إلى يوم، ولا نظن أن من واجب التربية لهذه الطبقة من الشعب أن تخرج لنا أمة من العظاء والأنبياء، هذا مطلب نظن أن أقل ما يقال فيه أنه مضحك.

وإنما ندعوا إلى أسر آخر في شأن هؤلاء الصبيان ، وهو أنهم يعملون حساب الجماعة التي يعيشون فيها رقيقين لراحتهم ومعادتهم وزنا عند تقدير الأمور ولا يفتاؤونها في نشاطهم وفي عملهم ، وأنها عند ما تتعارض مصلحة الفرد منهم ومصلحة الجماعة يريد أن يشبع مصلحته الشخصية أنه يشعر في قرارة نفسه بالتألم من هذا العمل ويحاول أن يخفف الضرر الذي يعود على الجماعة بكل ما وسعته الخيلة ويعني آخر يشعر أنه يكلف أيضا بأن يخدم الجماعة وأن هذا التكليف منبثق عن النفس وعن شعور عميق فيها بأن الجماعة أهل لكل خير تستطيع جهوده الفردية أن تجلبه لها .

وهذا بالذات ما نشعر أن الصبي المصري يخفله كل الاغفال وينكره كل النكران . هو معني بنفسه دون غير ما لا يفكر إلا فيها ولا يعمل إلا لها بغض النظر عما يحقق بغيره ، ثم هو لا يشعر بالأسف والندم في قرارة نفسه لهذا الذي يضر الجماعة ، والشعور الذي يتملكه ويملا كل زوايا نفسه هو ذلك الشعور الذي لا يفتأ يعبر عنه بقوله (وانا مالى) هذا ما يحسه حقا لأن نفسه لا تتسع لشعور آخر يتصل بمصلحة الناس أو بمصلحة الافراد اللهم الا عند تفضيل فرد على آخر ، ونظن اننا قد نستطيع ان نرد هذه الحالة النفسية وتلك الاثر الضارة بحياة الامة الى عوامل كثيرة منها ما يتصل بحالة الصبي الصحية والنفسية ومنها ما يتصل بحياته الاجتماعية في المنزل وفي الشارع وفي المصنع .

ونحيل اليما انه من غير المستطاع للشعب أن يترك هذه الحالة وشأنها ، لا نملك أن نسكت على هذا الوضع ، فلا خطار فيه واضحية والعال التي تنتج عنه لا قبل لأمة أن تغفلها من حسابها اذا كانت هذه الأمة تبغى حياة اجتماعية سليمة .

ثم وجدنا ايضا أن هؤلاء الصبيان شديدو التأثر سريعو الانفعال تستثير نفوسهم بعض الحوادث البسيطة على اسر سبيل ، فالرزاة والاذان وضبط النفس واستقبال الامور بالبرود أو بعض البرود ومداواة هذه

الانفعالات بحيث لا تظهر اثارها على وجوههم وفي تصرفاتهم ليس من طبيعتهم
فيه شيء ، فاذا جري أحدهم خوفاً من شيء أو فرح من امر فرح معه الباقون
وخافوا وأصبحوا أشبه بالغم نفرت وولت دون أن تدري لما هي تنفر
ويذكر الكاتب اننا عثرنا مرة على شعبان في المكان الذي كنا نلعب فيه فأنفرد
عقد الصبيان وولوا مدعورين وتفرقوا كأن الشعبان ينوي أن يلحق بكل
واحد منهم على حدة ، وبعد ان قتلنا الشعبان ومن الجائز انه لم يكن سامعاً
أخذ الصبيان يتحدثون به بشكل يدل على أن هذا الحادث عملاً عليهم
مشاعراًهم ونفوسهم وان هذا الانفعال بالذات لم يترك مجالاً لاحتساس آخر
وكانوا يقصون القصة لكل من حضر من الاولاد او من غيرهم ثم أخذوا
يتناقشون فيما بينهم ويلحون في النقاش ، بعضهم يظن أن الحياة في هذا المكان
لم تعد تصلح لهم وبعضهم يسفه هذا الرأي ويقاومه ، والداعون والمعارضون
جميعها يستوون في شدة الانفعال النفساني وفي وضوحه .

وهذا الصنف من الناس يخرجون عادة عن طورهم في التصرفات التي
تنبعث عن الانفعال فالفرح يطربهم فيخرجون عن وقارهم ، والحزن يجمعهم
بحيث لا يبالون كرامة الرجولة التي تتطلب ان لا يستخفنا الطرب فتصرف
دون الوقار اللازم للرجال او نحزن فنبكي وتنهمر دموعنا في ظرف يتطلب
مننا أن نضبط انفسنا كما يليق بالرجل ، ويذكر الكاتب حادثتين شاهدتهما
بنفسه ورأى فيها أثر الانفعال النفساني الشديد في نوعين من الناس يختلفان
كل الاختلاف ، وقد ثارت هذه العوامل في نفسه في الحادثتين على السواء
كما ثارت في نفوس من كانوا معه .

حدث انه كان نازلاً ضيفاً على عائلة في القاهرة وكان الوقت شتاء والناس
نياما وإذا ببعض الجيران محتاجين يصرخون ويطلبون العون من جيرانهم
لأنهم أحسوا بلص يحبو منزلهم باحثاً عن شيء يسرقه ، فدعوا الناس كلهم
وكنتم نسمع الصراخ والأصوات تنادي من كل جانب ، وإذا برجل معنا
في المنزل يملكه الخوف كما تملكنا جميعاً وإذا به يتصرف تبعاً لهذا الخوف

دون أن يحاول التستر عليه أو مداراته كما تفعل نحن وإذا به يقسوم إلى النوافذ يسدها والأبواب يضع وراءها الحراويل ، كل هذا ويداه تبتفض من الخوف ولسانه يتلعثم بشكل مضحك وهو يقول « يا سائر استر يارب يا سائر استر يارب » ولا يجد كلاما غير هذا يقوله ولا يفهم عملا يؤديه غير إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ ، وبعد أن هرب اللص دون أن يحدث ضررا بأحد ودون أن يأخذ شيئا معه وعاد إلى الناس هدوؤهم وسكونهم لم يكن صاحبنا يرى فيما فعل شيئا يلام عليه ، لا بل كنا نشعر أنه مستريح النفس والضمير راض عما فعل وعما ظهر من الانفعالات منه ، كأن هذا هو الشيء الطبيعي المعقول الذي لا يملك رجل أن يفعل سواه ، أما ضبط النفس وحجب الانفعالات عن أن تظهر بمثل هذا الشكل ، أما التحكم في الثورات النفسية التي تحدث للفرد فهذا هو الشيء الذي لا يعقل والذي لا ينتظره انسان عاقل .

والحدث الثاني حدث في إحدى بلاد الغرب في معسكر للصبيان يضم ما يقرب من الخمسمائة وإذا بعاصفة تمور بصحبات برق ورعد لم ير الكاتب في حياته مثلهما من الشدة والقوة . وقد كانت الصواعق تنحدر من السماء ذات اليمين وذات الشمال فترج الأرض رجا ويدوي قصفها في الآذان دوي القنابل ، وقد خاف الكاتب وأحس بداخل نفسه يضطرب وينفعل شديد الانفعال وإذا بمدير المعسكر يهم واقفا ويقود الأغاني بنفسه ويتخير منها ما يضحك ويسلى ويصحب الفناء بحركات قوية يقصد منها حمل الصبيان على الغناء معه ثم كان يدعوهم إلى الغناء ولا يرضي منهم إلا أن يغنوا بالقدر الذي تستطيعه حناجرهم ، وأخذنا نغني ما يقرب من الساعة إلى أن مرت العاصفة وهذأت الطبيعة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه ، كل هذا والأطفال يغنون وهم محتفظون بإمكانتهم ولم يظهر على أحدهم أثر من آثار الانفعال النفساني والواقع إنني موقن بأنهم كانوا خائفين وفي نفس الحالة النفسية التي كان عليها الكاتب ، وانتهى الحادث وذهب كل طفل إلى خيمته ولم نسمع كلمة واحدة

منهم عن هذه العاصفة كأنها لم تكن ، وذلك لأنهم يستنكفون أن يتعجبوا
بأنفعالاتهم أو يظهروها على وجوههم ، لا بل يزعمون أنه ليس من الكرامة
في شيء أن يظهر الإنسان هذه الانفعالات أمام الناس ويطلعهم
على ما يجيش بنفسه .

يلاحظ أن الطفل الصغير عندما تضطرب الانفعالات النفسية في داخله
سواء أكانت هذه ناتجة عن الفرح أم الخوف أو الحزن يتكلم بصوت مرتفع
وتندفع الكلمات من فمه اندفاعا ويتكلم بسرعة مما يدل السامع على أن نفسه
في ثورة داخلية منها كان السبب فيها ، فإذا ترك الطفل لشأنه لم يعبر عما
يجيش بنفسه بهذا الوضع دون إرشاد أو توجيه ودون الفات نظره إلى أن
ضبط هذه الانفعالات محبوب مرغوب فيه وإلى أنه ينتظر من الرجال
والاطفال الموزونين ، إذا لم يوجه هذه الوجهة تهادى في الخضوع لانفعالاته
أولا ، ثم نشأ على عادة بغيفية وهي التحدث بصوت عال مرتفع يسمعه كل
إنسان في الترام وفي القطار وفي كل مكان عام يقصده الناس وهذه عادة تظهر
فيينا كشعب وكأمة فحينئذ ليس لمن معنا من الأصدقاء وإنما لكل اذن تستطيع
أن تسمع سواء أكانت تحب أن تسمع أو تكره ذلك كل الكره ونظن أن
هذه العادة أخذت تقل شيئا فشيئا بين الاوساط المتعلمة ونرجو أن تقل
بمرور الزمن .

أما الاستسلام لما يجيش بالنفس والسماح لهذه الانفعالات بالظهور والتحكم
في التصرف فهذه واضحة كل الوضوح في اطفال الشعب ومما كان سببها
وعلمتها فانها تجعلهم يتصرفون بشكل لا يابق ولا يحسن به أن يستمر معهم
إلى أن يبلغوا طور الرجولة فيدفعهم بطابع لا يحسن أن يكون طابعنا كأمة
تريد أن تحافظ على كرامتها بين الأمم .

هذا من جهة ومن الجهة الاخرى نظن أن هذا الاستسلام للانفعالات
النفسية واطلاق العنان لها دون كبحها والتحكم فيها ، وتركها تقود

نصرفاً لنا كما يحلوها من شأنه أن يخرج الأفراد عن طور العقل في الحزن والفرح وفي الغضب والخوف ، فالبكاء والعويل وهيل التراب على الرؤوس وتمزيق الثياب لئلا تلت بالفرد إنما هو نوع من فقدان الوعي ، وهو ناتج عن تمكن هذه العادة في الفرد بحيث يستسلم لها دون حساب ، وهناك أيضاً الغضب الذي يتملك الفرد فيتصرف بمقتضاها وكما استسلم له ازداد الغضب تمكناً في نفسه الى أن يخرج عن وعيه ويفقد توازنه العقلي لحظة قد تكون كافية لأن يهمل فيها عملاً ذا أثر مستديم في حياته وحياة من يلوذون به ، ونظن أن القتل أو إصابة الأفراد بضرر جسماني يلحق لأنفسه الأسباب المرجعه الى تمكن عادة الاستسلام للانفعالات في الفرد حتى أصبح لا يملك إلا أن يتصرف بمقتضاها .

وعلى كل حال وجسدنا أطنال الشهب قابليين للانفعالات الشديدة ويتصرفون بمقتضاها وجدنا أن أعصابهم مرهقة جداً لأرهاق لا يستطيع أن تتحمل قدراً ضئيلاً من الضغط عليها وإذا أصابها شيء انفرط عقدها وأرسل زمامها بحالة لا تسمح للفرد أن يتصرف تصرفاً معقولاً في حالة الخوف أو الفرح أو الحزن أو الغضب ، وبعد فالناس بأعصابهم وما تتحمل والدنيا مليئة بما يهد أعصاب القوى فما بالك بالضعيف ، فيحسن بنا أن نعالج هذه الحالة في الأطفال أن استطعنا الى ذلك سبيلاً ونظن أنه من المستطاع علاجها فيهم .